الفلسفة والأدب

للأستاذ [illegible]

بين الفلسفة والأدب وشائج يجمعها صدق الإدراك وسلامة التعبير. وأول ما نشأت الفلسفة نشأت في الدولة اليونانية القديمة، وعرّفها «فيثاغورس» بأنها البحث عن الحكمة.

ومن ذلك العهد البعيد صارت الفلسفة ترمز الى كل رأي مبتكر أو علم جديد. وفي نطاقها ترعرعت بحوث العلوم والأديان والمنطق.

وإذا كان «أفلاطون» بعد «فيثاغورس» عناها بالاتجاه نحو الكمال، فإن «أرسطو» دلّل عليها بأنها العلم، وأحياناً أطلقها على أنها علم الكائنات الحية Ontology.

وظلت على تداول العصور يشوبها الابهام والغموض، حتى أنها اتخذت حجة للملحدين والخارجين على الدولة. وفي صراع النازعين اليها والمطاردين لها، ذهب كثير من العلماء ورجال الدين ضحية الاتهام والتنكيل، إما عن عداوة بين الحاكم والمحكوم وإما سعاية أريد بها الانتقام أو فتنة تثار بين الخاصة والدهماء.

وتقدمت العلوم واتسعت آفاقها، وأصبحت الفلسفة مشاعة تتداولها العقول، ولم تعد قاصرة على البحث عن الحكمة، بل تعددت مناهلها مع الاستزادة من المعرفة، وصار ارتيادها والمناظرة فيها يعتمد على البحث عن الحقيقة.

وغلبت على الشرق الفلسفة الدينية كما في الفلسفة الهندية التي بنيت على الحياة بعد الموت. والفلسفة الفارسية كما في فلسفة «ماني» وصراع الخير والشر، والفلسفة الإسلامية، كما في فلسفة ابن سينا والفارابي والغزالي وابن رشد وموسى ابن ميمون وغيرهم.

أما في الغرب فيمكن القول بأنها انقسمت مع التطور الفكري الى أربع فلسفات. فلسفة سياسية وهي خاصة بنظام الحكم وقيادة الشعوب، وفلسفة علمية وتخص جانب العلم المحض ومنها اشتقت علوم شتى كعلم النفس (السيكولوجيا) وعلم الأحياء (البيولوجيا)

وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وغيرها من العلوم الحديثة . ثم الفلسفة الروحانية وهي الفلسفة الدينية وما وراء الطبيعة . فالفلسفة الأدبية وهي موضوع مقالنا هذا .

وقد نما الأدب على العاطفة وما يحسه الانسان من مشاعر في حالاته النفسية من حب وبغض ، وفرح وغضب وضحك وبكاء ، وشجاعة وخوف . وإنما دفعه اليها حاجته لسداد « مركب النقص » أو شفاء رغبته المكبوتة .

ويلتقي الأدب والفلسفة في الخصائص الانسانية فكلاهما يخلع عن الوجود ما يجلو من خفايا أغواره العميقة المتباعدة . إلا أن الأدب (سواء في النثر أو الشعر) يفترق عن الفلسفة منصرفاً الى الشعور والتخيل ، بينما تتجه الفلسفة إلى التنقيب والتأمل .

ومتى كان الفيلسوف صاحب نظرية خاصة يعمل على تمحيصها وتحليلها بالمنطق والبرهان ، فان الأديب لا يعلق بفكرة معينة . لأنه أبداً زائغ البصر ، يعشق الشيء وضده ، ويكره ما كان يحب ويحب ما كان يكره . فهو في جذوة مضطربة غير مستقر ، لا يرى إلا بعينيه ولا يهدف إلا لما يهواه .

فطبيعة الفيلسوف الغوص وراء المجهول ، وطبيعة الأديب التطلع الى ما يوحى اليه من أنماط وألوان .

ولقد عاش « شوبنهور وجوته » في عصر واحد وفي بيئة واحدة فتغنى الأول بحياته وملكته عبادة « القوة » وأغرت الثاني الخيالات والاحلام فهتبدت به عبادة « الجمال » .

ومن الشعراء من تتسلط عليه روح الفلسفة والحكمة عندما تطول به السن وتنقله تجارب العمر . ومنهم من انغمس في الفلسفة إما بدافع نفسي كأن أصيب بنكبة جارفة قلبت الأوضاع في نظره ، كما حدث للشاعر الإيطالي « دانتي اليجيري » أثر وفاة معشوقته بياتريس » ، والشاعر الفرنسي فولتير » بعد قطيعة العاهل الألماني « فردريك » . والشاعر الانكليزي « جون ملتون » عقب فقد بصره وعزلته في الريف في أعقاب ثورة « كرومويل » . والشاعر العربي الحكيم « أبي العلاء المعري » بعد فشله في « بغداد » واضطراره للتفول الى مسقط رأسه بالمعرة في الشام رهين المحبسين . وإما بدافع خارجي كعدم توافق الشاعر والبيئة التي يعيش فيها أو تحامله على الوالي كما حدث للشاعر الفرنسي « فيكتور هوجو » والشاعر الانكليزي « لورد بيرون » والشاعر العربي المظم « أبي الطيب المتنبي » .

على أن النزعة الفلسفية تظهر في قصائد الشاعر قبل أن تتمكن منه وتتغلغل فيها ، كما ظهر في قول المعري وهو لا يزال يافعاً . ومن ذلك قوله في رثاء أبيه : —

جبلنا، فلم نعثر على حرص ما الذي … يراد بنا، والعلم لله ذي المن
إذا غيّب المرء استسر حديثه … ولم تخبر الأفكار منه بما يعني
تنقل في المقول الحيوان رشدها … ولم يعلم الرأي الشري من الأمن
وما فارقت شخصاً من الخلق ساعة … من الدهر إلا وهي أفتك من قرن
وجدنا أذى الدنيا لذيذاً، كأنما … جنى النحل أصناف الشقاء التي نجني
وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله … وكلف نوحاً وابنه عمل السفن

*

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم … ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهديني لا أزال مسائلاً … فإني لم أعط الصحيح، فأستغني

وقد كان مثل هذا الشعر في وقته يعتبر جديداً في معناه وعده النقاد نوعاً من الغريب وإن استساغته الأفهام لخلوه من صبغة التعقيد التي برز فيها شعر البعض فجاءت أشبه بالنظم المرصوف. ولا يفهم من هذا أن أبا العلاء هو أول من استنبط هذه المعاني الفلسفية بل سبقه من قبل «بشار بن برد» و«أبو تمام» و«ابن الرومي» وغيرهم.

ومع ما في شعرهم من طرافة ورصانة فإن العامة لم تألفه في زمانهم واعتبرته شيئاً بعيداً عن الشعر. وفي هذا يقول أبو تمام يخاطب الوزير الأديب محمد بن عبد الملك الزيات في قصيدته التي أولها: —

متى أنت عن ذهلية الحي ذاهل

أبا جعفر، إن الجهالة أمها … ولود، وأم العلم جذاء حائل
أرى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم … شعوب تلاقت دوننا، وقبائل
غدوا، وكأن الجهل يجمعهم به … أب، وذوو الآداب فيهم نواقل(1)
فكن هضبة تأوي إليها، وحرة … يعرد(2) عنها الأعوجي(3) المناقل(4)
فإن الفتى في كل ضرب مناسب … مناسب روحانية من يشاكل

وفيها يمدح الوزير في أبياته المشهورة: —

لك الخلوات اللاء لولا نجيها … لما احتفلت للملك تلك المحافل
لك القلم الأعلى الذي بشباته … يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

إلى آخر القصيدة.

(١) نواقل: ج ناقلة — القبيلة تنتقل إلى أخرى تنتسب إليها (٢) يعرد: يهرب
(٣) الأعوجي: فرس منسوب إلى بني هلال (٤) المناقل — سريع النقل.